البحث عن نحو للنص في مقابل نحو الجملة

أ/وسيلة بوسيس. جامعة جيجل/ الجزائر

ظهر نحو النص في النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة تطور البحوث اللغوية التي قامت بها المدارس اللغوية الأوروبية والأمريكية لفترة طويلة والتي نظرت وأعادت النظر في ظاهرة اللغة وفي مستويات الاستعمال فيها وفيما تؤديه من وظائف وما تحتكم إليه من قوانين وإجراءات نظرية وتطبيقية..

"ظهرت إرهاصات نحو النص الأولى على يد هاريس(Zellig Harris) وتطورت في السبعينات من القرن الماضي على يد فان دايك(van dijk) الذي يعد مؤسس علم النص أو نحو النص والذي عاصره كثير من المؤلفين في هذا الاتجاه حتى أصبح نحو النص حقيقة راسخة على يد الأمريكي روبرت دو بوجراند(Robert de Beaugrand) في الثمانينات" (1).

لقد أدى الإحساس بعدم جدوى التحليل اللغوي على مستوى الجمل إلى التفكير في الإمكانات التي يتيحها تحليل يتجاوز النتائج الضئيلة المحصل عليها من تحليل وحدة لغوية صغرى لا تمثل سوى جزء من المعاني الكلية المحصل عليها من تحليل وحدة أكبر وأكثر تعقيدا هي النص "فإذا كان النحو العربي وغيره قد انطلقوا من نحو الجملة ، وانحصرت التحليلات النحوية في هذا الإطار،فإن هذا ليس قصورا فيها ،وإنما هو راجع إلى الأسباب التي من أجلها تم القيام بتقعيد اللغة ، فقد كان من أهمها الرغبة في تقويم اللسان في نطق الجملة ، ومن ثم كان الاهتمام بالقواعد التي

تضمن سلامة الجملة(2) بمستوياتها المختلفة ،إذن لم يرتبط الحكم بالصحة أو عدمها بالنص بل بالجملة ومكوناتها الصوتية والصرفية والمعجمية"(3).

لم يكن نحو الجملة اهتماما مقصورا على النحويين العرب بل اهتمت المدارس اللسانية الغربية الكلاسيكية والحديثة بالجملة وتحليل الجملة. ويعد نحو النص أو لسانيات النص تطويرا وتوسيعا لحلقة البحث اللغوي المتجاوز للجملة والتي كانت فاتحتها على يد هاريس الذي يعتبر أول من وسع حدود الوصف اللساني متجاوزا الجملة إلى النص؛ إذ قدم سنة 1952 بحثا بعنوان:تحليل الخطاب(Discourse Analysis) كسر من خلاله الحاجز الصارم الذي أقامته اللسانيات لموضوع درسها وقدم البديل المتخطي الذي وسع أفق البحث في حقل الدراسات اللسانية.

انطلق هاريس من قولة أستاذه بلومفيلد"الجملة أكبر وحدة قابلة للوصف النحوي" معتبرا إياها العتبة التي فتحت الطريق أمام تحليل الخطاب"وباعتبار هاريس توزيعيا فإنه قد سعى إلى تحليل الخطاب انطلاقا من مسألتين:أولاهما توسيع حدود الوصف اللساني إلى ما هو خارج الجملة وهذه مسألة لسانية محضة .أما المسألة الثانية فتتعلق بالعلاقات الموجودة بين اللغة والثقافة والمجتمع وباعتبارها قضية خارج لسانية فلم يهتم بها هاريس،وببقائه ضمن حدود المجال اللساني عرف الخطاب بأنه"ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكون بنية مغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"(4)

توجد صلة وثيقة بين نحو الجملة ونحو النص إلى الحد الذي لم تنجح معه كل محاولات التمييز بينهما فنحو الجملة يشكل جزءا من نحو النص ذلك لأن الجملة جزء من النص، فالجملة في النص لا تفهم في حد ذاتها وإنما تساهم الأخرى في فهمها وهذا يبين أن الجملة ليست وحدها التركيب الذي نحدد به المعنى وإنما نحدد المعنى

أساسا من خلال النص الكلي الذي تتظافر أجزاؤه،يقول حسن بحيري:"للجملة داخل النص دلالة جزئية إذ لا يمكن أن تتقرر دلالتها الحقيقية داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل أو التتابع الجملي إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء ،فالاعتداد هنا ليس بالامتداد الطولي للنص،بل بالأبنية الكبرى المتلاحمة داخليا التي يقدمها النص"(5) .الجملة إذن بنية قاصرة عن الاكتفاء بذاتها من أجل الانخراط في بناء استراتيجية تفسير وتحليل شاملة ، لأنها تحتاج إلى أن تتواشج مع غيرها من الجمل حتى يتم معناها" لذلك فمن الضروري تغيير القبلة البحثية وذلك بالانتقال من أسوار الجملة إلى الكلام أو النحو(بالمفهوم الواسع للمصطلح) ليكون قادرا بوسائله على محاصرة النص ووصفه والكشف عن علاقاته التي تتحقق بها نصية النص بما هو حدث تواصلي مركب ذو بنية مكتفية بنفسها قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل"(6)

1- الجملة والنص/مفاهيم.

حدد العلماء منذ القديم مفهوم الجملة وبينوا مكوناتها ومختلف القواعد التي تحكمها وعلى ذلك قامت النظريات النحوية والاتجاهات اللسانية المختلفة "فمن حيث الموضوع يدرس نحو الجملة ما يعرف بالجملة، وتعريفاتها عديدة يتوسل بعضها بالمعنى فيربط حدودها باستيفاء المعنى وبعضها بالشكل والمعنى فيربط حدودها باستيفائهما معا وبعضها يربطها بالشكل فقط ويدرس نحو النصوص ما يعرف بالنص وتعريفاته متعددة هي الأخرى، يقوم بعضها على مفهوم التعدد في أجزاء الملفوظ الواحد ويذهب بعضها إلى اعتبار كل ملفوظ مهما كان حجمه نصا فيكون اللفظ المفرد وما هو في حدود الجملة وما تجاوزها نصا إذ تتفق كلها في تركبها من سلسلة من الوحدات التي تقبل التحليل إلى وحدات أصغر ويتواصل هذا التقسيم حتى يستوفي جميع الأقسام الممكنة.وبعضها يطلق النص على كل الوحدات اللغوية ذات

الوظيفة التواصلية الواضحة التي تحكمها جملة من المبادئ منها الانسجام والتماسك...الخ، وبعضهم يفرق بين نص هو كائن فيزيائي منجز وخطاب هو موطن التفاعل والوجه المتحرك منه ويتمثل في التعبير والتأويل"(7) ...ويتداخل في الاستعمال مفهوم النص من حيث هو وحدة لسانية قائمة بذاتها بمفهوم النص أو النصوص المعتمدة في دراسة ما بل إنه يتجاوز الملفوظ اللغوي إلى كل ما يدل على شيء فتكون العلامات البصرية أو الاشارية نصوصا يتجاوز درسها حدود اللسانيات إلى علم العلامات Sémiologie كما ضبطه دوسوسير في مطلع هذا القرن، وكما حاول بعض الدارسين في الغرب بلورته مثل جوليا كريستيفا في بحثها في علم العلامات الأدبي ورولان بارث في بحثه في مختلف النظم العلامية البشرية بما فيها العلامة اللغوية"(8).

2 - أسباب الخروج عن نحو الجملة وبدايات علم النص.

إقصاء المعنى والمقام:

أقصت الدراسة اللسانية في القرن العشرين الجانب المستعمل أو المنجز من اللغة على اعتبار كون اللغة شكلا لا مادة (Forme et non Substance) وفي ضوء هذا الاعتبار قسم دو سوسير اللسانيات إلى لسانيات اللغة ولسانيات الكلام اهتمت الأولى بالجانب الاجتماعي الذي يشكل ميراثا مشتركا بين جميع أفراد الجماعة اللغوية بينما نبذ دوسوسير الثانية انطلاقا من اعتبار الكلام طريقة الأداء أو الانجاز الخلافية المتسمة بالذاتية والحرية والفوضى واللاتجانس والتي يستحيل إخضاعها للضبط المنهجي والعلمي والتي لا توصل مدارستها إلى نتائج يقينية . إن المقصود بالشكل دون المادة هو اعتبار اللغة نسقا من الوحدات المحكومة بقانون والمنظور إليها من زاوية نظاميتها(انتظامها الصوتي ،الصرفي ،التركيبي الدلالي)وليس كونها "مادة" أي حاملة لقيم ثقافية أو اجتماعية أو نفسية...الخ يمكن عدها طاقات

تعبيرية يشتغل فيها المعنى بمثابة صانع الحركية ومانح الحيوية لهذه الظاهرة الإنسانية البشرية..

والملاحظ لبعض اتجاهات الدرس اللساني الحديث يجد أنها ألغت المعنى وعكفت على دراسة اللغة في مختبر ينأى بها عن مظاهر تجليها الطبيعي كواقعة من وقائع العالم الخارجي القائمة على التفاعل"فقد أقصت اللسانيات البنيوية الأمريكية وبالخصوص أتباع بلومفيلد- حتى أواخر العقد السادس من القرن العشرين- المعنى من الدراسة اللسانية إقصاء اتخذ مظهر الإرجاء.وهذا الإقصاء وإن كان بالأساس من متطلبات المنهج ومقتضيات الموضوعية فإنه قد انعكس على موضوع الدراسة اللغوية وطبيعة القواعد والأصول المتعلقة بها.ولم تول المدرسة التوليدية في مرحلتها الأولى المعنى كبير عناية ولم تحفل به كبير احتفال وهي إلى ذلك قد أقصت صراحة المقام ولم تجعل له مكانا في الجهاز النظري الذي اعتمدت عليه بمصادراته وفرضياته....وقد قوبلت هذه المواقف بالضيق بها تارة وأخرى بالخروج عنها وتجاوزها بتوسيعها أو بوضع نظريات أخرى تقابلها"(9)

ومن خلال تعريف النص على أنه يحتوي الجملة وما يفوقها وما هو دونها نطرح سؤال حول آليات الفهم القائمة بين المتكلم والمستمع وحول كيفيات تشكل المعنى "فالمستويات الثلاثة ما هو دون الجملة والجملة وما فوقها في دلالتها ترتبط بالمقام ارتباطا واحدا وهذا الارتباط يعتمده طرفا التواصل في تركيب الكلام وتحليله لكن نحو الجملة قاصر عن بيان وجوه هذا الارتباط إذا ما تعدى الملفوظ مستوى أكبر وحدة لفظية يشتغل عليها أي الجملة بالزيادة أو النقصان وتظهر ها هنا الحاجة إلى جهاز وصف يتجاوز حدود الجملة فيقف على دلالة النصوص والبنية التي تحكمها وهو أمر متأخر في الزمن بدأ مع تطور الأبحاث في النص الأدبي ومعها انفتحت أبواب أخرى أمام علم العلامات الأدبي وفي اللسانيات مع تطور لسانيات النصوص

في اتجاهاتها المختلفة وقد فتحت النظرية التوليدية في آخر ما وصلت إليه من مبادئ أبوابا أخرى أمام نحو النصوص ويتبين ذلك من خلال عودتها إلى مبدأ العمل والربط النحويين(نظرية العاملية والرابطية . Theorie du gouvernement et du liage) وهما يعملان في مستوى الجملة وفي مستوى النص"(10) .

إن النص المنجز فلوت ، يستدعي تحليله الوقوف على ميكانيزمات التفاعل القائمة بين المبدع والمتلقي لأنها هي التي تشرح المعنى القائم في طيات المكونات الدلالية للنص،هذا المعنى يقول فيرث Firth "لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة سواء كانت هذه السياقات لغوية أم اجتماعية وهي ما أطلق عليه فيرث سياق الموقف أو ما أطلق عليه بالمر "السياق غير اللغوي" حيث يراعى ذلك السياق ثقافيا أو عاطفيا ومن هنا الأجدى أن تتداخل كل السياقات وتتآزر في التحليل النصي"(11)

يعتبر إقصاء المعنى في الدراسة اللغوية سببا جوهريا غير مجرى البحث في الحقل اللغوي إذ وجه كثير من الدارسين وعلى رأسهم فيرث نقدا شديدا لهذا المبدأ الذي يعزل اللغة عن دائرة الاستعمال ويهمل ظروف وحيثيات التواصل بين الأفراد المستعملين للغة "فلما كان المعنى هو ما يهدف المتكلم إلى إيصاله إلى أفراد المجتمع الآخرين فإنه ينبغي التوجه إلى تحديد الضوابط التي تحكم الاستعمالات و السياقات التي تحدد معاني الكلمات..ويميز فيرث هنا بين السياق اللغوي والسياق المقامي وكلاهما يحكم الاستعمال ويحدد حركة الكلمات حيث يبين الأول أن الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية ويبرز الثاني أوجه التغير الذي يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها الكلمات وانتهى إلى أن تحديد المعنى يتوقف على:

- تحليل السياق اللغوي صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا
- بيان شخصية المتكلم والظروف المحيطة بالكلام
- بيان نوع الوظيفة الكلامية
- بيان نوع الأثر الذي يتركه الكلام"(12) .

أكد اللغويون وعلماء النص على ضرورة الاهتمام بالسياق من أجل فهم الترابط القائم بين وحدات النص.يقول في هذا الصدد جون لاينز(J.LYONS)"...هناك حقيقة مؤكدة : إن النظريات المعروفة عن السياق وخاصة اللغوية منها تؤكد الحاجة إلى الربط بين العلوم المختلفة منها علم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا وكل هذه العلوم يمكن أن تساعد سياقيا في تحليل النص من خلال مزجها في عقل المتلقي ونفسيته"(13) .ولعل ما قاله "براون ويول"(14) بشأن أهمية السياق في تحليل الحدث التخاطبي أو اللغة في الاستعمال يندرج ضمن هذه الرؤية التي ترد الاعتبار لما هو خارج لغوي(Extralinguistique) أي لمجموع العناصر التي تشير إلى الظروف المحيطة بالخطاب/النص يقولان ":..ومن الوحدات اللغوية التي تتطلب أكثر من غيرها معلومات عن السياق لتيسير فهمها نورد الادوات الإشارية مثل:هنا، الآن ،أنا ،أنت ،هذا ،ذلك فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردت في مقطع خطابي استوجب ذلك منا على الأقل معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي"(15).

2- البحث عن الانسجام فيما وراء الجملة

يقدم من جهته جان ميشال آدام(J.M.ADAM)تصورا عن التحليل اللساني المتجاوز لعتبة الجملة ويحدد الإجراءات التي من شأنها تفسير النصية(LA TEXTUALITE) وكشف الأدوات والعلاقات القمينة بجعل نص/خطاب ما

يتحقق في الاستعمال.يقول آدام:"من أجل متابعة التحليل اللساني خارج إطار الجملة المركبة ونوع الجمل وكما تبدو جد صعبة يجب قبول التموقع على حدود اللسانيات بهدف بلورة عدم انسجام كل تركيب نصي"(16) .لا يجد النص– في حدود هذه الرؤية – انسجامه خارج الجملة لذلك لا بد من تحديد موقع عدم الانسجام(Heterogeneite) كخطوة أولى من أجل فتح باب النشاط التأويلي (L'activite interpretative) فإن كانت اللسانيات النصية قد قدمت في كثير من مباحثها توصيفا علميا لطرائق تمظهر النصية عن طريق مجموعة الأدوات والعلاقات التي تشتغل في الإطار اللساني وعدم تحقق هذه الأخيرة يؤدي إلى بحث وجودها على مستوى الانسجام النصي" والانسجام النصي ليس خاصية لسانية تحققها الملفوظات إذ يعطي المؤول للملفوظات المعنى والدلالات ولا يكون عادة حكما بعدم الانسجام إلا في نهاية عمله"(17) .نستخلص من هذين النصين ما يلي:

- لا يوجد في إطار تجسيد اللغة وتحقيقها عن طريق ما يسمى الخطاب أو النص منجزا متجانسا و منسجما على اعتبار كون الخطاب/النص مبنيا على نسيج من المقاطع المتباينة والمختلفة في منطلقاتها وغاياتها وهيكلها اللغوي ..
- يشتغل الانسجام والتجانس عند ج.ميشال آدام كفعالية ذهنية قائمة على التأويل ، تتخطى الملفوظات في صيغتها اللسانية وما تستوجبه هذه الملفوظات من تحليل يتقيد بعناصرها اللغوية ومحمولاتها الدلالية .من زاوية النظر هذه نستخلص "أن آدام قد قدم رؤية للتحليل تبدأ بنقض الانسجام بما يدفع النصية عن كل خطاب/نص ، ثم بفعل التأويل يجد المؤول خريطة للنصية يبرهن عليها ،ليحكم في النهاية على تشكيل الملفوظات بطريقة ما أنها منسجمة ومتجانسة (Homogène) ويقتضي هذا الطرح وجود كفاءة لسانية (Compétence linguistique) مضبوطة بطريقة جد معقدة لقيامها على جملة معارف متداخلة تستحضر عند التأويل ليتمكن

المؤول من وصف نسيج العلاقات الداخلية ثم الخروج بها إلى ظروف الإنتاج (Circonstances de production) ومقام التخاطب (Situation discursive) لإبراز كل ما يسهم في فهم الملفوظات حيث تدخل كل أنواع المعارف في الحسبان في هاتين العمليتين (المعارف التداولية ومعارف العوالم المقدمة"(18) .وقد حدد آدام هذه العوالم بـــ"الفضاء الدلالي (Espace Sémantique) ، كون المعتقدات (L'univers de croyance) أو الفضاءات الذهنية (Espaces mentaux) ،كما حددها أوريكيوني باسم الكفاءات غير اللسانية (Compétence non linguistique) وهي:علم النفس (psychologie) علم التحليل النفسي(Psychanalyse) والثقافة (Culture) والموسوعية (Encyclopédie) والايدولوجيا(Idéologie) (*)

تتكئ المعرفة اللسانية في عملية الإنتاج والتأويل على المعرفة غير اللسانية المتضمنة لأدوات وعناصر خارج نصية من شأنها إضاءة المعتم من النص ، يتأتى ذلك حسب آدام بالربط بين الفضاء الدلالي للنص والفضاء الذهني للمحلل أي بين ما هو لساني نصي مقيد بمحددات لغوية وما هو ضمني ومجرد وقابع في منطق الاحتمال والإمكان أما أوريكيوني فوسعت من مجالات المعرفة الخارجية(نفسية،ثقافية،...الخ) وجعلت مؤثراتها تتضافر من أجل رسم الخط الغائب المكمل لدائرة المعرفة النصية .

الهوامش:

1- عفيفي أحمد :نحو النص.اتجاه جديد في الدرس النحوي.مكتبة زهراء الشرق.القاهرة.ط1 .ص11

2- الفقي ،صبحي ابراهيم:علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق.دار قباءللطباعة والنشروالتوزيع.القاهرة.ط1. 2000.ص49-50

3- يقطين ،سعيد:تحليل الخطاب الروائي.المركز الثقافي العربي ط3 1997 ص17

4- بحيري،حسن:علم لغة النص.المفاهيم والاتجاهات .الشركة المصرية العالمية للنشر. ط1 1997.ص139

5- مصلوح ،سعد:نحو أجرومية للنص الشعري.دراسة في قصيدة جاهلية.مجلة فصول مجلد10. ع1-2 1991 ص153

6- الزناد، الأزهر:نسيج النص.بحث فيما يكون به الملفوظ نصا. المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء وبيروت ط1 1993. ص15

7- م.نفسه.ص16

8- الشاوش،محمد:أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية.تأسيس نحو النص.المؤسسة العربية للتوزيع.بيروت.ط1 2001 ص69

9- الأزهر الزناد:المرجع السابق.ص16.17

10- عفيفي أحمد:نحو النص.ص49

11- الشاوش ،محمد:أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية.ص70

12- أحمد عفيفي : نحو النص. ص49

13- ج.ب.براون و ج.يول: تحليل الخطاب.تر.محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي.مكتبة الملك فهد الوطنية .الرياض.1997

14- م.نفسه.ص50

15- J.M.ADAM.Textes.Types et Prototypes.recit descriptio explication et dialogue.nathan.paris 4em ed 2001 p20

انظر:أحمد مداس.لسانيات النص.نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري

16- J.M.ADAM.OP.CIT.P22

17- IBID.P14

18- ibid- p14.

(*) Catherine Kerbrat Orècchioni : l'énonciation de la subjectivité dans le langage. Armand colin.paris.France.1980. p17